

"رأس إسماعيل" بين حلم الإيديولوجيا

واستلاب الواقع

شوقي بدر يوسف

عن دار ميريت للنشر والمعلومات صدرت رواية "رأس إسماعيل" وهي تحمل معها عنوانا جانبيا آخر هو "من حكايات الفراشة واللهب" للدكتور مأمون البسيوني، وهو العمل الإبداعي الثاني بعد صدور كتابه الأول الذي يحمل نفس العنوان "الفراشة واللهب" عن دار الثقافة الجديدة عام ٢٠٠٠ والذي يرصد فيه الدكتور البسيوني سيرته الذاتية من خلال ومضات حياته زاهرة بأيام النضال والسجن والإعتقال من أجل إعتناقه لرؤى خاصة تأرجحت بين الدين والسياسة. وإتفاقه وإختلافه مع الآخر خلال مسيرة حياته بدأها في كتابه الأول "الفراشة واللهب" منذ أن كان معتقلا في سجن المحاريق وحتى هذه اللحظات التي وسد فيها جثمان زوجته عليه هانم عبد الغفار التراب.

والكتابان "رأس إسماعيل" و "الفراشة واللهب" يتقابلان في أشياء، ويختلفان في أشياء أخرى، فأبطال الكتابين وشخصيهما أشخاص حقيقية، وأحداثهما أحداثا واقعية حدثت بالفعل، وشخصياتهما المحوريتان أصحابا رؤية خاصة وأيديولوجيا واحدة، وإن كانت المعاناة التي عاناها كل منهما في سبيل مبادئهما تختلف من شخص إلى آخر، ومن وضع إلى آخر، فالراوي في النص الأول "الفراشة واللهب" أدخل السجن والمعتقل مرات

عديدة بسبب مواقفه الأيديولوجية، بينما شخصية " إسماعيل " فى رواية " رأس إسماعيل " فقد أدخل مستشفى الأمراض العقلية لوأد أفكاره ومعتقداته السياسية، ولعل الدلالة التى يحملها عنوانا الكتابين " الفراشة واللهب " تعبر حقيقة عن وحدة المضمون العام للنصين، وقد فسرهما الكاتب بأن " الفراشة " هو من حمل لواء المبادئ والأفكار، و " اللهب " هو المعاناة التى يعيش فيها صاحب هذه المبادئ ويكتوى بنار نضالها، ويعانى من أتون لهيبها، كذلك فإن التقنية التى استخدمت فى النصين تكاد تكون تقنية سردية واحدة فى صياغتها، أستخدم فيها الكاتب اساليب التداعى الحر، وتيار الشعور المتدفق، والمونولوج الداخلى المحاور للشجون والهواجس التى تمتزج وتختلط فيها الأزمنة المختلفة بشخوصها وممارساتها التخيلية والواقعية، وتتداخل فيه الأحداث بقسوتها وسطوتها، وإن كانت السيرة الذاتية للكاتب قد أخذت منحا واقعية لطبيعة السرد التسجيلى فيها، ولأن الكتابة عن الحياة الشخصية، وهى تمثل السيرة فى منحائها العام، تعمل على إنتاج حياة جديدة، يمكن تسميتها بالحياة النصية تحمل فى طياتها قدرا من القمع والعنف والتحدى الصارخ .

يقول الدكتور مأمون البسيونى فى كلمته التى تصدرت كتابه الأول " الفراشة واللهب " : بدأت قبل أن كنت .. كما يقول الجاحظ ، ساعة ميلادى هى ساعة وجودى، ولى أيضا ساعة خلاص، غير إنى أكره الموت . ولعل هاجس الموت فى رواية " رأس إسماعيل " هو العنصر الأساسى والرئيسى فى أحداثها، ومشاهدها المختلفة حيث يتوج هذا العنصر نهاية الرواية، ويجعل أحداثها كلها تروى كاملة فى لحظات هذا الهاجس، لذلك فإن مفهوم الموت فى رواية " رأس إسماعيل " مفهوم قدرى يحمل داخله فلسفة الحياة ومصير الإنسان كما كتبه الله له، بعيدا عن المعنى الوجودى الذى صورته بعض الكتاب الوجوديين فى فلسفتهم الشائعة فى الأدب الأوروبى الحديث، وإن كان هاجسه الذاتى المتوحد مع الحياة، والمكابد لهيبها، يتواجد فى كل لحظة يتعرض لها الكاتب لمستويات القمع والأرهاب والعنف

ورواية " رأس إسماعيل " تشير إشكالية خاصة تواجدت فى العديد من نصوص الرواية العربية والغربية، وتتلخص هذه الإشكالية فى هذا الخلل التراجيدى، والفاجعة المريعة التى تسحق إنسانية الإنسان، وتسلبه أبسط حقوقه وتهدر آدميته، فقط لجرد أنه أراد أن يعبر عن رأيه، ومشاركة الآخر فى توجيه الواقع التوجيه الأمثل للحياة، إلا أن ذلك يجابه بقوة لوأد الرأى المعبر عن مكنون الذات والواقع، فالواقع المأسوى كما تطرحه الرواية يرتبط بالفكر والفكر المعاكس، كما يعكس احتجاج الكاتب ومحاولته التعبير عن رفضه للواقع، وهو لذلك يجابه بمقاومة شرسة تجتاحه وتسلبه حريته، وتضعه فى قيد كلفة سبعة عشر عام من حريته الشخصية قضاها فى مستشفى الأمراض العقلية متهما فى تهمة لم لا يعرف مداها،

ولا يعرف ما هي أصلا .

ولعل التساؤل الذى يفرض نفسه هنا ونطرحه ونحن امام هذا العمل الروائى المتداخل الذى يجسد مراحل القهر والتسلط والصراع الدائر داخل شرنقة الذات، وداخل دهاليز المجتمع السياسى هو : هل الفن فى سياقه العام، والأدب جزء منه، هو تعبير عن الحرية، وعن البعد الإنسانى الواجب توافره من أجل التوازن الداخلى للإنسان فى مواجهة الأضطراب وهاجس الموت والعسف العام ؟ . إذا كان ذلك كذلك ، فإن جوهر العملية الإبداعية تجد نفسها فى نهاية الأمر فى مأزق يتأرجح بين القبول والرفض، وهو كما ذكرنا ما سبق أن وجدناه فى العديد من الأعمال الأدبائية التى تتصدى للإجابة على مثل هذا التساؤل، فهى فى إشتباك وصراع دائم مع ما هو راهن وواقع ضد الإنسان والمجتمع، خاصة هذا الإنسان الذى يحمل معه بذور البحث عن الزمن الضائع، أو الأفق المفقود، أو الحرية الخالصة التى يريد أن يعبر عنها بأفكاره التى يعتنقها ويؤمن بها .

فى جذور هذا التوازن الدقيق بين حرية الكاتب ومجابهة أفكاره، تكمن التجربة العامة للأديب فى الحياة، وفى واقعه الذاتى على وجه الخصوص، والتساؤل الذى يطرح نفسه هنا، هو : إلى أى مدى يعاصر الكاتب أحداث زمانه ووقائع هذا الزمان بكل ما يحمله من حلم وواقع، وبكل ما نتحمله منه من معاناة وكفاح وإنصهار فى نيرانه المتوهجة ؟ ، وإلى أى مدى يسير الكاتب، ومتى يتوقف، ومتى يكون صادقا، ومتى يهادن ويدهن ؟ . إن الأجابة على هذه الأسئلة تتطلب منا أن نحدد الفرق بين الأديب وبين الكاتب المفكر . إن الأحداث السياسية فى تاريخها المعلن ، والقضايا الكبرى فى ثوابتها الموثقة المعروفة هى عمل يقوم به المؤرخ، وهى وظيفة لا شك تلقى علىعاتق المفكر، أما الواقع والأحداث الصغيرة فى حياة الإنسان أو فى حياة أى شريحة من شرائح المجتمع فمن الممكن أن يشيد منها عملا أدبيا كبيرا إذا ما توافرت له موهبة روائية تملك قوة التخيل، وسطوة التخيل، ومن ثم فهى تنسج سرديتها من منطلق الذاتى والموضوعى، والخاص والعام فى أعمال إبداعية تخلد الموقف وتشيد الكاتب . لقد جسّد الكاتبان الأمريكى إرنست هيمنجواى والأزبكيستانى جنكيز إيتماتوف على سبيل المثال فى روايتهما " العجوز والبحر " و " الكلب الأبلق الرابض على حافة البحر " عالما سرديا ثريا خصبا وصراعا بين الحياة والموت، وبين الإنسان وقدره، من خلال حادثة بسيطة هى رحلة عادية قام بها الكاتبان الأول من خلال متخيله لصيد أحد الحيتان، والثانى من خلال نفس المتخيل لصيد حيوان الفقمة، كما كتب نجيب محفوظ روايته " اللص والكلاب " من خلال تأثره بالزيف الذى كان يحيط بالمجتمع خلال مرحلة الستينيات . كذلك صاغ عبد الرحمن منيف فى روايته " شرق المتوسط " موقفا قمعيا معبرا به عن إشكالية الحرية المصادرة فى شرق المتوسط من خلال معادل موضوعى فضائى عن السجن وحصار الذات، وكتب رمسيس لبيب فى روايته " يحدث هذا المساء " و

" السرايا الحمراء " عن تجربة السجن ومستشفى الأمراض العقلية، وما يدور داخلهما من عوامل القهر والعنف وكبح الجماع، والممارسات اللاإنسانية، كما كتب صنع الله إبراهيم روايته " تلك الرائحة " و" شرف " عن تجربة السجن أيضا، وغيرهم كثيرون تناولوا هذا الموضوع روائيا .. الروائي السوري نبيل سليمان في روايته " السجن " ، الروائي العراقي عبد الرحمن مجيد الربيعي في روايته " الوشم " أو الوكر . من خلال هذا الإبداع صاحب الخصوصية في تناول والصياغة، نجد إن الموروث الخاص برفض ما ترسب في إعماقنا ووعينا من خلال النقد المعادي للأيديولوجيا وهو الرفض المعتاد للعنصر والبعد السياسي في العملية الإبداعية يجعل دائما المترسب داخلنا عن قناعة يشير إلى أن هناك من هم خارج نطاق النقد على المستوى العام والخاص، لذلك فإن الأدب يحاول أن يكون محايا لما هو يدور داخل المجتمع، كما أنه يكون أحيانا محايدا خاصا في هذه الفترة بالذات التي تتسم بحرية الفكر والتعبير عن المبدأ، فيبدع ما شاء له الإبداع حول النقد الاجتماعي والسياسي في شتى مجالات الحياة، وأحيانا يكون هذا الإبداع جزء من عملية التنقيط عن الذات والتعبير عن غربتها والحنين إلى الجذور العميقة لها . وها نحن امام عمل روائي يعالج حرية الإنسان الفكرية والجسدية من منظور الموت المعنوي والذي يكلل في النهاية بالموت الجسدي من خلال الصدفة المأسوية العاتية التي تتعرض لها شخصية " إسماعيل " بعد أن خرج من الشرنقة الحديدية للسجن، وبعد عن عذابات اللهب، وبدأت الحياة بتتسم له من جديد، إن الرؤية التي وضعها الدكتور مأمون البسيوني في روايته " رأس إسماعيل " تنبثق من ثوابت واضحة ورد ذكرها أكثر من مرة في سيرته الذاتية " الفراشة واللهب "، فرضها واقع السجن والإستلاب الذي تعرض له، والحرية الغائبة التي فقدها، والحرمان الذي سيطر على حياته منذ ان كان طالبا بكلية الطب وحتى تخرجه وإشتغاله بمهنة الطب بعد هذه الفترة الغالية من شبابه التي قضاه في السجن والقهر والقمع والمعتقل، وهو ما رأيناه أيضا واضحا في رواية " رأس إسماعيل " من خلال هذا الصحفي الكاتب المفكر المترجم والذي يعيد إلى أذهاننا حادثة حقيقية وقعت بالفعل للكاتب " إسماعيل المهدي " الذي نذكر له في هذا المجال ترجمته الرائعة لرواية " الأخوة الأعداء " للروائي اليوناني كارنتزاكيس، وغيرها من الأعمال الإبداعية والفكرية المهمة .

تبدأ الرواية بهذه العبارة " : في صباح مبكر ، ليوم شديد القيظ من صيف أغسطس لأواخر ثمانينات القرن العشرين تمد رجل مصري فوق صفحة ماء البحر ..

على هذه الحشية المائية .. أرخى زراعية بجانبه، ومد بصره، وتشاغل لحظات بمشاهدة أصابع قدميه، ثم ما لبث أن حلق في السماء، يتابع طائرين يترافقان، ويعلوان حتى ضاعا بين أغلفة السماء الزرقاء .

بهذه الإستهلال البارع بدأت رواية " رأس إسماعيل " وبنفس هذه العبارة أيضا تنتهي

الرواية بعد أن أكملها الكاتب إلى نهايتها بسقوط إسماعيل، هذا السقوط الملحمي الذي لعبت الصدفة المبررة تبريرا ميتافيزيقيا فى إنهاء هذا الصراع بين الإنسان ودوره المرسوم له فى الحياة " : غاص وتصلبت عضلاته ! قاوم لأخر مرة . وشعر بالمجهول أسفل منه، وصرخ عاليا .. النجدة .. النجدة .

ولم يرد عليه أحد .
استرحم الماء والأمواج، والأسماك، وأعشاب البحر . ولكنها صماء لا تسمع نداء البشر ، لجأ إلى السماء وإلى الدوامة يطلب الرحمة . ولكنه وجد كل شئ رصينا يستمع إلى المجهول وحده .. وحوله أنتشر الضباب .. والعزلة وصخب الأمواج .. وتحته أخايد غير محدوده من مياه موحشة، وهوة سحيقة لا قرار لها . حلم بالمغامرة المفزعة للجثة وقد شلها الزمهرير، وتكرمشت كفاهها، تقبض على الماء وبعض الأعشاب . تتراخى ويجرفها التيار لتتحم الظلال المترامية فى هيولة، والسمك يتبعها ويحيطها، ويسير أمامها . يقوده إلى الأعماق الحزينة لتقله . ويكسوه دمقس الأعشاب البحرية " . بهذه اللغة الشاعرية بدأت الرواية وانتهت وما بين البداية والنهاية كانت الحياة تربط بين الذات والموت، وبين الصراع من أجل البقاء، والصراع أيضا من أجل الموت .

ومن خلال هذا الصراع نجد أن الكاتب يوجه اهتمامه نحو كشف الواقع، بكل ما يحمل من أبعاد سياسية وأيديولوجية، وإنسانية . فبينما يقاوم " إسماعيل " - الشخصية المركزية للنص - الغرق تبدأ أحداث الرواية .. ما بين إحساسه بالخوف من أن يكون أبتعد فى عرض البحر، وسقوطه فى هذه الهوة السحيقة التى قرار لها، فى هذه اللحظات السريعة الحاسمة، ومع هذه الأنفاس المتهدجة من خشية الموت، ومع زاوية حادة ما بين الحياة والإحساس بنهايتها، تراءت له حياته كلها كاملة كأنها شريط سينمائى، تيار سريع للخواطر والأحداث، و مونولوج طويل مع النفس المسرعة إلى الرحيل جمع فيه خيوط وأحداث الماضى بكل ما يحمله من عذابات النفس، والجسد، والروح، اختزلها فى هذه اللحظات القليلة التى شهدت نهايته وسقوطه فى أعماق البحر السحيق .

منذ أن تم القبض عليه بتهمة تسليمه مخطوطات عربية وإنجليزية لصحفية أمريكية تدعى " نانسى برجمان " فيها طعن فى الحكم القائم وعبارات ماسة برئيس الجمهورية طالبا نشرها بالخارج حيث ابلغت المذكورة السلطات، وسلمت ما لديها من اوراق تخص الموضوع . وتم تحويله إلى مستشفى الأمراض العقلية بحجة أنه أخذ يهزى ويردد عبارات غير مترابطة لفحص قواه العقلية وبيان مسئوليته عما وقع .

وتبدأ وقائع الاستلاب والقهر النفسى والمعنوى حين وقف إسماعيل أمام اللجنة الطبية المشكلة لفحص حالته، وبعد الأسئلة الروتينية، والمكالمات التليفونية التى حددت مصيره من الخارج، كان كل شئ قد أصبح على ما يرام، وأصبح " إسماعيل الحكيم المصرى "

الصحفى السابق بجريدة الوعد مقيما بصفة دائمة بمستشفى الأمراض العقلية برتبة نزيل، وبدأت رحلة العذاب داخل أروقة زنزات السلطة ومصحتها العقلية " : وسرت وسط حائطين من اللحم البشرى : ممرضين غليظين طويلين ، أبدو هادئا تحت شكل ظاهرى . يعتصرنى الألم، أطبق عيني لحظات، لأتحمل مشاهدة هذا العالم الغريب الذى أدخله لأول مرة .. وقد غاب عن ذاكرة البشر . حيث الناس يحتكون دائما بأنفسهم وبيعهم وبأخرين لا يظهرون

ثقل هو كابوس اللحظة الأولى . استيقظت وفتحت عيني ، ليستمر هذا العالم الشبحى من الضحايا والنزلاء .. ينظم احتكاكهم فى قسوة وفظاظة حراس غلاظ أشداء يرتدون ثياب الممرضين والمرضات . همهمات .. وصياح .. ونظرات للجدران والهواء .. والسماء .. ولا أحد على أى قائمة لأحصاء الخسائر البشرية . إنهم يعيشون الصدمة خارج نطاق التحمل، وقد سقطوا داخل هذا الثقب الأسود من الوجود الإنسانى حيث يتقلص الزمان والمكان ويصبح كل شئ ثقيلًا، فى منطقة حرة لا تخضع للقوانين على حد قول الأطباء والمستخدمين فى مستشفى الأمراض العقلية (ص ٢٢) . خلال هذه الفترة الحاسمة فى حياة إسماعيل ماتت أمه ورحلت عن الدنيا حاملة معها مأساتها ومتاعبها تجاه إبنها، وطلبت منه زوجته إلهام الذى كانت تعمل معه فى جريدة الوعد الطلاق وحصلت عليه بسهولة، وكبر ولداه عادل وحكيم، وتغيرت الحياة كلية والمفاهيم التى تحكمها، وتبدلت أحوال المجتمع، وأصبح كل شئ قابلا للتغيير إلا هو، فالواقع بالنسبة له بسطوته وجبروته وعنايه الدائم كما هو، ولن يتم تغييره بالسهولة التى يتخيلها .

وبعد سبعة عشر عاما قضاها إسماعيل عبد الحكيم المصرى فى مستشفى الأمراض العقلية تحاصره الأوهام، وتحيط به وسائل التعذيب المختلفة، البرشام والحقن والجلسات الكهربائية التى تفقده توازنه وتحلل عقله إلى جزئيات صغيرة وتربك رأسه وتحطم قواه . الرؤى الحلمية الكابوسية التى تراوده بين المرضى التى يحدثها مثل هذا الجو الخانق فى مستشفى كهذه المستشفى فقدت كل معانى الأدمية والإنسانية، " المجنون سلامة " خيره بين الضرب وتناول البرشامة فضل الضرب، الشخص الذى كان يزعم بأنه " جمال عبد الناصر " نصح الآخر الذى يدعى " الملك فاروق " بأن يخفى البرشام بجانب فمه ثم يبيصقه بعض أن ينصرف الممرضون، أما الحقن الأسبوعية والجلسات الكهربائية الدورية فلا يستطيع أحد أن يتهرب منها، كانت هذه المواد المخدرة والجلسات الضرورية تسبب تفكك القوى الجسدية والذهنية لبنية المرضى، وعندما كان أحد المرضى يرفض تناول البرشامة كان يضرب ضربا مبرحا ثم يلقى داخل العنبر وسط المجانين . فى السجن هناك حبس أفرادى لا يوجد أحد معك سوى النمل والحشرات، فى المستشفى هناك حبس جماعى وسط المجانين الذين يتحلقون حولك ويفقدون النوم، والحركة، وأيضا الكلام، هذا هو

العقاب .

قال إسماعيل : أردت أن أكون فيلسوفا فأنتهيت أن أكون معتوها " .
بعد هذه الفترة الطويلة من الزمن " : خمسمائة وثلاثة وأربعون مليوناً وبضعة آلاف من
الثوانى .. هى مجمل سبعة عشر عاما وثلاثة شهور من الأحداث المخيفة أمضاها إسماعيل
عبد الحكيم المصرى فى مستشفى الأمراض العقلية، و بعد هذا العمر من محاولات
التحطيم والترويع والتعرض أيضا للأعتداء الجنىسى، ونفخ المخ بالكهرباء والعقاقير المنومة،
نشرت الصحف الخبر التالى منسوباً للنائب العام : حفظ التحقيق فى قضية الصحفى
إسماعيل عبد الحكيم المصرى بعد تدخل نقيب الصحفيين " (ص ٢٣)

وخرج إسماعيل المصرى من مستشفى المجانين

لا يبدو أن إسماعيل المصرى سىصبح مفهوما — على الأقل فى مصر - إلا بعد مرور
عشرات السنين حين تكون الأمور قد تمت على أكمل وجه . واستقرت مشاعره وهو خارج
من المستشفى قاصدا منزل طليقته إلهام حيث أولاده، ومجمعه الخاص الذى تركه من زمن
طويل وهو يتذكر أيام المستشفى وأحلامها المزعجة المليئة بالحكايات المثيرة الذى كان لا
يملك سواها فى هذا الجو المقبض . وأوجد له أولاده شقة على كورنيش الأسكندرية، ووجد
أن فرصته الوحيدة فى إصلاح الحياة هى مصادقة البحر . " : أنصت .. وصلت إلى أذنيه
وشوشات الأمواج .. نزل من على السرير قفزا .. ومشى بسرعة وتسمر أمام زجاج النافذة
.. رأى البحر .

ماذا يعنى النظر إلى الماء الممتد بلا نهاية ؟ تهيج أمواجه وتصفو . وما هذه اللامبالاة
الباردة ؟ لن يرد عليك البحر أيها الإنسان .

- حسنا آتية يوما .. ألقى بنفسى فى أعماقه .. كم أنزع للموت غرقا .. أموت بعيدا عن
البشر . لا يظالمنى فى لحظاتي الأخيرة وجه إنسان .. يكون البحر قبرى ، وكفى مصنوع
من دمقس الأعشاب البحرية .. والسماك الملون يمشى فى جنازتى " . ربما كانت هذه الأمنية
التي راودت إسماعيل وهو ينظر من نافذة شقته الجديدة على البحر هى منتهى أمانيه .

راح يفكر فى حياته الآن ، كيف ستسير به الأمور ، فكر فى ثلاثيته التى كتبها وهو فى
المستشفى أسمها — دردشات من مستشفى المجانين . تمنى لو انمحت من ذاكرته هذه
الفترة العصبية التى قضاها بالمستشفى والتى كانت مبادئه سببا فى حدوثها ، هل هذا
معقول ؟ ، وجمال فى خاطره سقراط وإعدامه بالسّم وكيف قدموا له السم بإبتسامة طاغية .
هل ما يحدث له أو ما حدث لسقراط أو فولتير أو غيرهم من المفكرين الذين قدموا خدمات
للفكر نوع من الفوضى، أم ماذا ؟ وتطوف بخاطره تساؤلات كثيرة حول ما حدث له .

: " فى بعض الأحيان تبدو الفوضى رصينة ومنمقة وأيضا منطقية ، على خلاف كل المبادئ
والقواعد، ومن أعماق الغيظ والغضب والاستسلام، انبعثت فى داخلى لحظة حية .. تلمست

بعض الحق لدى الذين تخيلوا أننى مصاب بعاة عقلية . فإن من يقدم على مواجهة رئيس الجمهورية — الزعيم الشعبى — ومن أعادته الجماهير إلى الحكم — غصبا — بعد إعلانه التنحي ومسئوليته عن الهزيمة العسكرية التى خففوا وقعها بتسميتها بالنكسة .. من يحاول نقد هذا الرئيس — فما بالك بمن يصل بعبارات النقد إلى حدود الوصف بالفاظ سمتها النياية : شتمة وطعن .. من يجرؤ على ذلك لا بد أن يكون مجنوناً " . (ص ١٠)

كانت الأمور تختلط برأسه .. رأى نفسه فى كلية الآداب يؤسس جمعية للفلسفة وفجأة ينتقل إلى مكتب رئيس التحرير بالجريدة بالدور الثانى عشر وتنتابه كثير من الهلوسات التى سببتها مبادئه الذى لا يزال يعتنقها وينادى بها " : الليبرالية .. الحكم وتعدد الأصوات .. خدمة أصحاب الصوت الأعلى والشكل الجذاب .. من يملك الثروة والقوة والضغط وأصحاب العقول والإفكار ؟ الذين لا مواهب لهم و الدهماء .. كيف يكون لهم دور فى تشريع وإدارة الأمور ؟ " . ويدور حوار حاد مع رئيس التحرير " : الديمقراطية الحقيقية مثل الثقافة الحقيقية .. تكون بالضرورة لا بالطبقية، ومحاولة ربطها بالفقراء، والمعدمين هى محاولة دهمانية لا عقلانية .. وإعتبار البروليتاريا .. عمال المصانع .. خصوصا فى بلد كبلدا القيادة فيها للثورة والسلطة الاشتراكية مغالطة تعنى إعتبار واحدة من الطبقات الأكثر حرمانا من الفكر والثقافة بمثابة عقل المجتمع . ويخرج رئيس التحرير وتدخل كائنات مرعبة أخذت تدفع إسماعيل نحو النافذة، تحاول ألقاءه فى الشارع . وبدلا من السقوط من هذا الأرتفاع الشاهق فى الفضاء .. امتلأت الغرفة بالأسلاك والأجهزة والكائنات المرعبة على شكل بطاريق عملاقة، أطول هامة من البشر . تنتصب على أقدامها وتضرب بأجنحتها الضخمة الهواء فى عنف . فتطير كتبه ومقالاته ، يقاوم ويصيح .. فيصحو من الكابوس ليتحسس رأسه مكان الوصلات الكهربائية التى كانت تصله بأجهزة الصدمات فى مستشفى المجانين .

يتذكر راندا تلميذته فى الجريدة والمشرقة على باب الثقافة والفكر ، نفس الباب الذى كان يشرف عليه قبل القبض عليه، حضرت إليه رندا وقدمت له روايتين للترجمة كنوع من المساعدة .. رواية " آلهة الذباب " للكاتب الأنجليزى ويليام جولدنج ، ورواية " الصيف الأخير " للكاتب الألمانى هيرمان هيسه ، وبدأت علاقة من الصداقة الوطيدة تربطه براندا ، كما دخلت المرأة مرة أخرى حياته من خلال " سوسن " صاحبة الشقة التى يقطنها سرعان ما تطورت هذه العلاقة وتوطدت فى حميمية من نوع جديد، حيث رأت فيه سوسن رجلا جديدا فى حياتها بدلا من زوجها الأول المحامى الذى نصب عليها وبدد معظم ثروتها، " : فى ذلك المساء، بعد أيام من العودة إلى الإسكندرية تناول معها العشاء . استقبلته سوسن، التى كانت تنتظره، وقد أدهشته برقتها وأناقتها . رحبت به بهدوء، وكانت لطيفة جذابة مرحة فى خلو بال .. ومن أجله لبست نفس الفستان التى كانت ترتديه على أول غداء معه .. وما

كان فى وسع أحد ينظر إلى إسماعيل فى تلك الليلة ، أن يظن أن مصير هذا الرجل قد حسم " . وتسير الحياة بإسماعيل المصرى وكأنها بدأت تبترسم له من جديد منذ أن تعرف على سوسن ، فقد أخذته إلى خالها معروف الديب المحامى ليرفع له دعوى على الحكومة للمطالبة بتعويض عن هذه الأيام التى قضاها بالمستشفى، وهذه التهمة التى لفقت له وبسببها دخل مستشفى الأمراض العقلية، لدرجة أن سوسن أعطت له مفتاح الكابينة الخاص بالأسرة، ويحاول إسماعيل نشر كتابه " الديموقراطية الجديدة " بمعاونة خال سوسن معروف الديب المحامى، حتى يوفق أخيرا إلى طبعه . وتموت زوجته إلهام، وتسافر راندا إلى أبنها بأمريكا، وتبدأ سوسن فى التقرب إليه . وتتسارع الأحداث، وتبدو الحياة شحيحة فى مواقفها مع هذا الإنسان المكود، وفى اليوم الذى حدده ليفاتح سوسن فى أمر الزواج، ينزل إلى الكابينة ويرتدى المايوه، وينزل إلى الماء، وتهل حين حمله الماء، تشاغل لحظات بمراقبة أصابعه ثم ما لبث أن حلق فى السماء يتابع طائرين يترافقان ويعلوان حتى غابا وسط أغلفتها الزرقاء . ووسط هذه السعادة الغامرة، يعيد التاريخ نفسه مع " إسماعيل المصرى " ويبدأ العد التنازلى للإنتهاء من هذه المأساة التى بدأت منذ فترة بعيدة، منذ أن دخل مستشفى الأمراض العقلية بتهمة ملفقة، صنعتها أيدى ماهرة وطالت بها حياته كلها " : وجد نفسه وحيدا .. وقد خفت إلى حد الصمت جعجة البشر القلائل الذين كانوا ينتثرون حوله . وألقت الخيوط الأولى للصباح ضوءا باهتا على هذه السعة المفزعة من المياه فزادتها رهبة .. وأخذت المياه تدور من حوله ورأسه المسكينة وحيدة كنقطة ضئيلة وسط جبال الأمواج العالية . سقط من فوق حشية الماء ، أختفى ثم ظهر، غاص ثم طفا، ينادى ويحرك زراعية ولا شئ حوله .. ولا شئ تحت قدميه إلا المياه الجارية المتدفقة . والأمواج فوق رأسه تعلو ثم تتمزق وتبعثرها الرياح . وتحمله اللجة بعيدا .. وينقض على رأسه الرذاذ المنفعل .. وتتراكم عليه مجموعات من الأمواج، وتحاول الأعماق المظلمة أن تبتلعه، وفى كل مرة يلمح الهاوية وهى مليئة بالظلام . ويحس بأن أشياء غريبة تمسكه وتقيدته وتجذبه إليها، ويخيل إليه انه سيصبح جزءا من اللجة، وسيتحول إلى بعض من زبد البحر . ويشرب الماء المالح ، ويكد البحر الجبان فى إغراقه، وتهزأ سعته الهائلة بنزعه، ويشعر بأن البحر ملئ بالكراهية له، وقد نسى أنه كان فى يوم من الأيام جزءا من عالمه .. أو لعله يتذكر .. يتذكر ذلك جيدا .. وهذه هى فرصته للانتقام ممن هجر عالم الماء " لحد صميمين لحد . وتختزل هذه العبارة الفارقة بين الإنسان ووجوده، وبين حياة شخصية " إسماعيل المصرى " ، المفكر والأديب والأنسان، منذ أن بدأت رأسه تمتلى بأفكار الحياة، ومبادئها، وحتى وقوعه فى براثن زبانية مستشفى الأمراض العقلية، ثم خروجه، والصحو الكبيرة التى بدت عليها حياته مع كل من عرفهم واقترب منهم من اقربائه، وأولاده، وأصدقائه، ومعارفه، وحتى هذه اللحظة الحاسمة من حياته .

وتحققت نبؤته التى كان فيها فى موعد مع الماء والبحر، حين سقط فى نفس الماء الذى أصبح مغرماً به، وكان سقوطه مدوياً فى هذا الوقت، حين كان على موعد مع الحياة والسعادة .
وعلى الشاطئ كانت سوسن تنتظر مع آخرين .. متى يقذف البحر بجثته ؟ وهى تتساءل ..
هل غرق إسماعيل أم أنتحر ؟

التساؤل

عشت عمرى أقم الإدعاء بجلب الحرية والعدالة والإخاء والمساواة .
تحملت فى سبيل ما تحملت . وبدلاً من أن تسير الحياة بالبسطاء والعاديين والفقراء الذين التزمت بمساعدتهم، إستمر هؤلاء يحملون الحياة على كاهلهم .. على من ألقى اللوم ؟
هل كان ما طرحته كل الفرق :
الليبراليون، الإخوان المسلمون، الماركسيون، الناصريون .. أكثر صعوبة من أمنيات التحقيق والتحقق ؟
هل كان العيب فيما حملناه من أفكار ؟ أم كان العيب فى الإنسان الذى بشر وحمل
العيب
أم

حول الأسئلة فى بلدى حكايات . وكل من حاول الإجابة فقد خاطر وكل من غامر
باجتياز الحدود، حمل فوق جلده علامات وفى النفس كدمات .